أدب الاختلاف في العقائد عند أهل السنة والجماعة

للدكتورة: إحسان بنت عبد الغفار عبد الله مرزا [(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

مقدمة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[(٢)].

هذه الآية فيها منهج عظيم يجعل العدل لازما من لوازم الإيمان... منهج دقيق يمثل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد،

---

(١) أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية، تخصص عقيدة- مذاهب معاصرة- مكة المكرمة١٤٢٩هـ .

(٢) سورة المائدة، الآية (٨).

وينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كل أحد. قال ابن عثيمين "الخلاف لم يكن في هذه الأمة في أصول دينها ومصادره الأصلية وإنما كان الخلاف في أشياء لا تمس وحدة المسلمين[١]".

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم، ولهذا قيل: (إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: ويُقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام[٢]).

إنه في هذا العصر يحتاج المسلم الرجوع إلى منهج أهل السنة في الحكم على الأشخاص ليزن الأمور كلها بميزان القسط.

حيث أصبحت الأهواء هي التي تتحكم بالآراء والتوجيهات، حتى إن الإنسان قد يتغاضى عن أخطاء من يُحب مهما كانت كبيرة ويُبررها بل قد تتحول هذه الأخطاء إلى محاسن، وفي المقابل تراه إذا أبغض أحداً – لهوىً في نفسه أو تقليداً لغيره – جرَّده من جميع الفضائل، ولم ينظر إلاّ إلى سيئاته وزلاته يفخمها وينسى أو يتناسى محاسنه الأخرى مهما كانت بيّنة، وليس هذا الاضطراب في تقويم

---

(١) ابن عثيمين: الخلاف بين العلماء، ٤.

(٢) الفتاوى، ١٤٦/٢٨

الرجال فحسب، بل تعداه إلى عالم الكتب، فبعضهم إذا رأى خللاً في كتاب ما، رماه جميعه وضرب به عرض الحائط وشنع على مؤلفه وعلى من اقتناه أو قرأه، وهو يغفل إغفالا شديداً عن الجوانب الإيجابية التي قدمها المؤلف، أو العكس يكون لو ارتضى كتاباً أو مؤلفاً.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولم يقف هذا الخلل الفكري عند هذا الحد فحسب، بل تعداه إلى ما هو أعظم منه من التنازع والتقاطع بل البغي، فتفرقت كلمة الصالحين في الوقت الذي يحتاجون فيه إلى الترابط والتآلف.

يقول ابن تيمية: "وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب[1] وهذه من صفات أهل البدع كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

"فإن أكثرهم – أي أصحاب المقالات[2]– قد صار لهم في ذلك هوىً أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نسب إليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علم ولا حُسن

---

(١) الوصية الكبرى، ٥٢.

(٢) ويقصد رحمه الله في المقالات، أي الأقوال البدعية في العقائد.

قصد فيُفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله. وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون إلا أهواءهم، ويقولون: هذا صديقنا، وهذا عدونا وبلغة المغل هذا (بال)، وهذا (باغ)، لا ينظرون إلى موالاة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله. ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس..[1]

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2].

وقال بعدها: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وحَّد الرسول ﷺ القلوب وانطلقت هذه الأمة لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وأبرز عوامل تفرقها هو الاختلاف والابتداع.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4] وقرر شيخ الإسلام هذا المعنى فقال: "البدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة

---

(١) منهاج السنة النبوية، ٥/٢٥٥، تحقيق محمد رشاد سالم.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٠٥).

(٤) سورة الأنعام، الآية (١٥٣).

مقرونة بالجماعة".

وخصائص منهج أهل السنة والجماعة يقوم على تأليف القلوب وتوحيد الكلمة ومعالجة التصدع والتفرق، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

وأهل السنة كانوا يختلفون فيما بينهم على المسائل العلمية والعملية، ولكنهم يضبطون سلوكهم – مهما كان حجم الخلاف - بأدب الاختلاف من الود والألفة والاحترام المتبادل في الإطار الأساسي وهو المحافظة على الجماعة.

يقول شيخ الإسلام:

"تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة وإصلاح ذات البين[٢]

إن عدم التركيز على ثوابت الإسلام وأهمها تأليف القلوب جعلنا نهتم بالوسائل وننسى الغايات، "إن المشكلة التي نعاني منها اليوم هي ضعف فهمنا لمرامي ما نعلم وقصور إدراكنا للغايات، كما أننا افتقدنا الموجه الصحيح الذي يمنحنا السلامة، لقد اكتسبنا المعرفة وافتقدنا خُلقها، وامتلكنا الوسيلة وضيعنا الهدف والغاية، وما أكثر ما فوتت خلافاتنا حول مندوب أو مباح أمراً مفروضاً أو واجباً أو غاية

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١).

(٢) مجموع الفتاوى، ٥٠/٢٨.

عظمى، لقد أتقنا فن المبارزة والمحاججة والخلاف وافتقدنا آدابه و أخلاقياته فسقطنا فريسة سهلة للتآكل الداخلي والتنازع الذي أورثنا حياة فاشلة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[(١)(٢)].

لقد قص الله علينا تاريخ أهل الأديان السابقة للعبرة والحذر وجلا لنا أسباب التدهور قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾[(٣)] وعدَّ سبحانه الخلاف الذي يؤدي إلى الافتراق ابتعاداً عن هدى النبوة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[(٤)].

ذلك أن أهل الكتاب لم يؤتوا من قلة علم وضآلة معرفة إنما كان هلاكهم لأنهم استخدموا ذلك العلم للبغي بينهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾[(٥)].

فهل ورثنا علل أهل الكتاب بدل أن نرث الكتاب؟ وهل ورثنا البغي بدل أن نرث العلم وأخلاقه؟ إن من الناس من يلتزم بأخلاق طلب

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٦).

(٢) العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام، ٩-١٠.

(٣) سورة الروم، الآيتان (٣١-٣٢).

(٤) سورة الأنعام، الآية (١٥٩).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٩).

العلم عند من يوافقهم الرأي والمذهب، أما من خالفهم فهم يسيئون الظن ويحقدون ويفعلون ويفعلون، أليست هذه أخلاق اليهود التي حذرنا الله منها[1] ؟!.

إن الاختلاف في وجهات النظر أمر طبيعي فطري وله علاقة بالفروق الفردية، وكلٌ مُيسَر لما خُلِق له، وإلا لما كان الإيمان درجات والجنة درجات، ومما يؤسف له أن يتحول الاختلاف من ظاهرة صِحّيّةٍ تعطي العقل خصوبة وسعة اطلاع إلى مرض عضال وسم زعاف أدى إلى التآكل والتفتت، حتى أصبح البعض يُعامل إخوانه الذين يلتقون معه على أصول العقيدة كأنهم أعداؤه وسبب هذا عجزه عن النظرة الكلية والرؤية الشاملة فيضيق ذهنه على جزئية صغيرة يضخمها ويكبرها إلى درجة أنه لا يمكن أن يرى معها شيئاً آخر أو يقبل إنساناً يخطئه فيها فيُوالي عليها ويُعادي عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[2].

قد تنقلب الآراء الاجتهادية والمدارس الفقهية التي محلها النظر والاجتهاد على أيدي المقلدين العوام إلى ضرب من التخريب الفكري والتعصب، إن السلف الصالح اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا؛

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة هود، الآية (١١٨)

لأن وحدة القلوب والغايات أكبر من أن ينال منها شيء، فالرجل الذي بشره الرسول ﷺ بالجنة واستقل الصحابة عمله هو رجل ينام وليس في قلبه غل على مسلم، العالم الإسلامي اليوم ٨٧ دويلة أو يزيد والاختلافات بينهم لا يعلم مداها إلا الله وخاصة بين العاملين وطلاب العلم.

إن هناك أناساً ينفون الاختلاف أصلاً ويُنكرون آداب هذا العلم وأن تدريس مثل هذا تأصيل للخلاف، وهذه غفلة تصل لحد نسيان البدهِيَّاتِ وقد قال علي رضي الله عنه: "ما جاء إليَّ عالم إلا غلبته وما جاءني جاهل إلا غلبني"[(١)]

كل هذه الأمور استدعتني لأن أكتب في هذا الموضوع –الذي لست أنا بدعاً فيه– بل قد سبقني علماء أفاضل أفاضوا في هذا العلم الذي يعتبر من العلوم المجهولة رغم أهميته، وإن فاتني شيء أو أخطأت في أمور فطبيعة البشر الخطأ والنسيان، وأرجو من الله العفو والغفران، وإن أصبت ففضل ومنة من الله تعالى.هذا وقد جاء البحث في مقدمة وفصلين وستة مباحث وخاتمة تحتوي على أهم النتائج والتوصيات كما يلي:

محتويات البحث:

- مقدمة عن أهمية العدل والوحدة وخطر الاختلاف.

---

(١) انظر المرجع السابق، ١٤.

الفصل الأول: الأدب والاختلاف وأسباب الاختلاف.

المبحث الأول: تعريف الأدب وفضله.

المبحث الثاني: تعريف الاختلاف والفرق بينه وبين الخلاف والجدل والشقاق.

الفصل الثاني: أهل السنة والجماعة.

المبحث الأول: من هم أهل السنة والجماعة.

المبحث الثاني: أهل السنة والجماعة هم أهل العدل والإنصاف.

المبحث الثالث: قواعد في منهاج أهل السنة والجماعة مع الآخرين.

المبحث الرابع: ضوابط وآداب أهل السنة والجماعة.

الفصل الأول: معنى الأدب والاختلاف.

المبحث الأول:تعريف الأدب وفضله

تعريف الأدب وفضله وقصص من آداب العلماء:

الأدب:

يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل.

قال علماء اللغة والأدب: الظرف وحُسن التناول، وأدّبه: علمه[١].

قال ابن حجر:- الأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً.

وعبر بعضهم بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق أو الأخذ بالخلق الجميل.

وقيل هو: تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك.

ويقول ابن القيم: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطأ والخلل[٢].

اهتمام السلف به قبل العلم:

يقول إبراهيم بن حبيب: "يا بني ائت الفقهاء والعلماء وتعلّم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذلك أحبُّ إليّ لك من كثير من الحديث".

وحكى مطرف أن أم الإمام مالك من أول يوم دخل فيه على العلم فقال: "كانت أمي تعممني وتقول لي:

اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه".

يقول العنبري: علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم.

---

(١) لسان العرب، مادة الأدب.

(٢) انظر مدارج السالكين، ٣٧٦/٢، وانظر فتح الباري لابن حجر، أول كتاب الأدب، ٤٠٠/١٠.

قال بعض السلف: ناهيك من شرف الأدب أن أهله متبعون والناس تحت راياتهم، فيعطف ربك - تعالى- عليهم قلوباً لا تعطفها الأرحام، وتجتمع بهم كلمة لا تأتلف بالغلبة، وتُبذل دونهم مهج النفوس[(١)].

أمثلة من الأدب، وفضل الاختلاف:

يقول الخطيب عن الإمام الثوري:"إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه"[(٢)].

أقوال العلماء في سعة الاختلاف:

"كان طلحة إذا ذكر عنده الاختلاف قال لا تقولوا الاختلاف ولكن قولوا السعة"[(٣)].

روى مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن أبي قيس قال: سألت عائشة عن وتر رسول الله ﷺ كيف كان يوتر من

---

(١) انظر فيما سبق، أسامة بن منقذ: لباب الآداب، ٢٢٨ وما بعدها، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دارة الكتب السلفية، ط٢، ١٤٠٧، وانظر الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ، ٢٠١/١ ، تحقيق محمود الطحان ، مكتبة المعارف بالرياض ، ١٤٠٣هـ ، وجامع بيان العلم وفضله ، ١٢٧/١ ن وقال ابن عبد البر فيه (والأدب وأخبار أهله لا ينتهي الحديث عنها ، وقد ألفت فيه الكتب .....)

(٢) الفقيه والمتفقه ، ٦٩/٢.

(٣) المرجع السابق.

أول الليل أو من آخره؟ فقالت: كل ذلك كان يصنع، فقال: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. فقلت: كيف كانت قراءته أكان يسر بالقراءة أم يجهر بها؟ فقالت: كل ذلك قد كان يفعل. فقلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. قلت: فكيف كان يصنع في الجنابة: أكان يغتسل قبل أن ينام أو ينام قبل أن يغتسل، قالت: كل ذلك كان يفعل، قلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة [١].

قال سفيان: إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة أما التشديد فيتقنه كل أحد[٢].

لا بد أن تكون هذه التوسعة من مليء بالعلم والدين والاستقامة.

قال السيوطي: اعلم أن اختلاف المذاهب نعمة كبيرة وفضيلة عظيمة وله سر لطيف أدركه العالمون وعميَ عن الجهال.

مالك قال له أبو جعفر المنصور: قد أردت أن أجعل هذا العلم – يعني الموطأ – على واحد – أي على رأي واحد وألغي كل المذاهب – فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة، فمن خالف قطعت عنقه، فقال له: يا أمير المؤمنين إن النبي ﷺ كان يبعث السرايا ويخرج فلم يفتح من البلاد كثيراً، ثم قام أبو بكر فلم يفتح من البلاد كثيراً، ثم قام عمر ففتحت البلاد على يديه فبعث معلمين

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد، ٢/٢٤٥، ط دار الكتاب العربي.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٣٦.

أخذ عنهم كابراً عن كابر فإن ذهبت عقولهم إلى ما لا يعرفونه رأوا ذلك كفراً. لكن أقِر كل بلدة على ما فيها من العلم[1].

قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ونصف متفقه ونصف متطبب ونصف نحوي.

سأل مالك بن عوف عائشة رضي الله عنها ما يوجب الغسل؟ فقالت: أتدري ما مثلك يا أبا سلمة؟ مثل الفروج يسمع الديكة تصرخ فيصرخ معها (الموطأ).

قال ابن المبارك: قدمت الشام فرآني أحد العلماء فقال لي: يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام، فجئت يوم الثالث، وهو (هذا العالم) مؤذن مسجدهم وإمامهم والكتاب في يدي فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة وقعت عليها قاله النعمان فما زال قائماً بعد ما أذّن حتى قرأ صدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمه ثم أقام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها كلها. فقال لي: يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا؟ فقلت: شيخ لقيته بالعراق. فقال: هذا نبيل من المشايخ اذهب

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ، ٧٨/٨.

فاستكثر منه. قلت: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه[١].

ثم زاد ابن المبارك ثم التقينا بمكة فرأيت هذا العالم يجاري أبا حنيفة في تلك المسائل والإمام يكشف له بأكثر مما كتبت عنه فلما افترقنا قلت له: كيف رأيته؟ قال: غبطت الرجل لكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه[٢].

من روائع أدبهم أنّ الشافعي يلتقي الصفدي (ناظره يوماً) فيأخذه بيده ثم يقول: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة[٣].

ومن مظاهر الإنصاف: ما حكاه الذهبي في ترجمة عفان بن مسلم قال: الفلاس: رأيت يحيى القطان يوماً فحدث بحديث، فقال له عفان: ليس هو هكذا، فلما كان من الغد أتيت يحيى فقال هو كما قال عفان، ولقد سألت الله ألّا يكون عندي على خلاف ما قال عفان[٤].

---

(١) محمد زكريا القائد هلوي: أوجز المسالك إلى شرح موطأ مالك، ١/ ٨٨-٨٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سير أعلام النبلاء، ١٠/١٦.

(٤) المرجع السابق، ١٠/٢٤٩.

المبحث الثاني: تعريف الاختلاف والفرق بينه وبين الخلاف والجدل والشقاق

معنى الاختلاف:

أن ينهج كل شخص طريقاً مُغايراً للآخر في حاله أو قوله.

أما الخلاف، فهو أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين.

والاختلاف بين الناس يُفضي إلى التنازع، قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾[1]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[2]، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾[3] فالخلاف يُراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو الموقف.

أما علم الخلاف:

فهو علم يُمكن من حفظ الأشياء التي استنبطها إمام من الأئمة وهدم ما خالفها دون الاستناد إلى دليل مخصوص. فلو استند إلى الدليل لأصبح مجتهداً وأصولياً والمفروض في الخلافيّ ألا يكون باحثاً عن أحوال أدلة الفقه، بل حسبه أن يكون متمسكاً بقول إمامه لوجود مقتضيات الحكم – إجمالاً – عند إمامه كما يظن هو. وهذا

---

(١) سورة مريم، الآية (٣٧).

(٢) سورة هود، الآية (١١٨).

(٣) سورة الذاريات، الآية (٨).

يكفي عنده لإثبات الحكم ويكون قول إمامه حجة لديه لنفي الحكم المُخالف.

المرحلة الثانية يأتي الجدل: إذا اشتد اعتداء أحد المُخالفين أو كليهما بما هو عليه من قول أو رأي أو موقف وحاول الدفاع عنه وإقناع الآخرين به أو حملهم عليه سميت تلك المحاولة بالجدل.

الجدل في اللغة:

المفاوضة على سبيل المنازعة والمُغالبة.

أما علم الجدل:

فهو علم يقوم على مقابلة الأدلة لإظهار أرجح الأقوال الفقهية(١).

وعرَّفه بعض العلماء: بأنه علم يُقتدر به على حفظ أي وضع يُراد ولو باطلاً وهدم أي وضع يُراد ولو حقاً، إذاً هو قدرة أو مَلَكة يؤتاها الشخص ولو لم يحط بشيء من الكتاب والسنة(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾(٣) فليس العلم أن تمتلك أدوات العلم إنما العلم أن تمتلك آدابه.

رأي العلماء في الخلاف :

حذر العلماء من الاختلاف بكل أنواعه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ

---

(١) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٥٩٩، ط دار الكتب الحديثة/ مصر.

(٢) انظر الجرجاني: التعريفات ، ٦٦، ط الحلبي.

(٣) سورة الفرقان، الآية (٦٣).

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1]، قال عليه الصلاة والسلام: ((هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم..))[2].

والاختلاف على ثلاثة أقسام :

١) الاختلاف في الأصول وهذا حرام وبدعة وضلال.

٢) الاختلاف في الآراء والحروب وهذا حرام لما فيه من تضييع المصالح.

(هذان النوعان قال فيهما ابن مسعود "الخلاف شر"[3]) - كما سيأتي -

٣) الاختلاف في الفروع كالاختلاف في الحل والحرمة فيما ليس فيه أصل ونحو ذلك.

ويكفي لمعرفة خطر الاختلاف أن نبي الله هارون عليه السلام عدَّ الاختلاف أكبر خطأً وأشدّ ضرراً من عبادة الأوثان. فجعل من

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٣).

(٢) والحديث بتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه" رواه أحمد في مسنده، ٢/٣١٣، ٤٨٢ وغيرها، وانظر جمع الأوائل للهيثمي ١٥٨/١.

(٣) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ٢٢.

خوف الفرقة والاختلاف بين قومه عذراً له في عدم التشديد في الإنكار ومُقاومة القوم والانفصال عنهم حين لاينفع الإنكار[١].

قال تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[٢].

فنراه عليه السلام: لم يشدد في الإنكار خوف الخلاف، ولم يعتزل القوم خوف الخلاف.

مما يوضح لنا خطر الخلاف والفرقة، وأهمية الوحدة والائتلاف والتي تعلو فوق أي خلاف في الرأي أو وجهة من وجهات النظر.

الفصل الثاني: أهل السنة والجماعة.

المبحث الأول: من هم أهل السنة والجماعة.

لا يخفى على أحد أنَّ المسائل المهمة التي توسعت فيها شِقة الخلاف مسألة تعدد المذاهب أو تعدد المدارس العقدية بلغة اليوم- وكل مدرسة تلقب نفسها أهل السنة والجماعة- وإنكار بعضهم على بعض صحة هذا الانتماء ويعدون غيرهم من أصحاب الفرق الضالة التي أشار إليها الحديث.

معنى السنة لغة: الطريقة.

---

(١) العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام، ٣٠-٣١.

(٢) سورة طه، الآية (٩٤).

شرعاً: سنة النبي ﷺ من أقوال وأفعال وإقرار وسائر أحواله ويلحق بها سنة الخلفاء الراشدين ((فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي))[1].

فأهل السنة إذاً:

المتبعون لسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

يقابلهم في الوصف:

أهل البدعة* المتبعون لبدع الأمور ومحدثاتها المعرضون عن سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء.

الجماعة لغة: العدد الكثير من الناس، أو طائفة يجمعها غرض واحد.

اصطلاحاً: جماعة المسلمين المجتمعين على قول واحد في أصول المسائل الشرعية الواقفين موقفاً واحدا من كبرى القضايا الإسلامية.

يقابلهم في الوصف:

أهل الفرقة، أو أصحاب الشذوذ.

---

(١) رواه أبو داوود، ك السنن، ٣٩٩١، والترمذي، ك العلم، ٢٦٠٠ وغيرهما، قال عنه الترمذي حسن صحيح.

* البدعة: لها تعريفات كثيرة، فلغة: هي اسم لما ابتدع في الدين وغيره، وشرعاً: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك فيها المبالغة في التعبد، أو هي شرع لما لم يأذن به الله. (الشاطبي: ٣٧/١، معارج القبول، ٥٠٢/٢).

قال عليه الصلاة والسلام: ((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن))[(١)].

نشأته: استمر الحال كما كانوا في عهد الرسول ﷺ ولم نسمع بهذا الاسم إلا بعد أن حدثت الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه ثم ظهر التشيع في عهد علي رضي الله عنه، وما حدث في عهده من اختلاف وتَفرّق أدى إلى ظهور لقب أهل السنة والجماعة تلقائياً، واشتهر على ألسنة العلماء مقابل فرق: (الخوارج*، الشيعة*،

(١) جزء من حديث رواه الترمذي، ك الفتن، ٢٠٩١، وقال حديث حسن صحيح غريب.

* الخوارج: أطلق على النفر الذين خرجوا على علي رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم عقب معركة صفين وطالبوه أن يعترف بالكفر ثم يتوب منه، وسموا بالحرورية لانحيازهم إلى حروراء قرب الكوفة، وظهروا كجماعة بعد التحكيم وعيّنوا شبث ابن ربيعي التميمي أميراً لهم، من أصولهم تكفير مرتكب الكبيرة، ووجوب الخروج على الأئمة إذا وقعوا في معصية، تكفير من رضي بالتحكيم، وإنكارهم للشفاعة. (انظر الفصل في الملل والنحل، ١٥٦/٤، د.أحمد جلي: دراسة من الفِرَق في تاريخ المسلمين، ٥١ وما بعدها).

* الشيعة: ظهرت كردة فعل للخوارج، فبايعوا علياً رضي الله عنه، ثم تطورت إلى القول بإمامته والطعن في خلافة مَن قبله، وهم فِرق كثيرة أهمها: الإمامية أو الاثنا عشرية لأنهم يقولون باثني عشر إماماً من أهل البيت ابتداءً من علي رضي الله عنه إلى الحسين العسكري، أبرز أصولهم إمامة علي، والعصمة للأئمة، والعلم اللدني، =

الرافضة*).

ثم حدثت فتنة ثانية نشأ منها فرقة:

القدرية* والمرجئة*.

ثم فتنة ثالثة نشأ منها فرقة:

الجهمية* ونحوهم.

=

والرجعة، والتُقية، والغلو في علي رضي الله عنه إلى مرتبة الألوهية عند بعضهم، عندهم مصحف يسمى مصحف فاطمة غير القرآن. (انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ٥٥، بتصرف).

* الرافضة: من الأسماء التي أطلقت على الشيعة، وعددها ٢٤ فرقة أو خمس وعشرون ومنهم الإمامية، وأطلق عليهم أهل السنة هذا الاسم لرفضهم الخلافة إلا لعلي رضي الله عنه. (انظر الأشعري: مقالات الإسلاميين، ٨٨/١، و د.علي المغربي: الفرق الكلامية الإسلامية، ١٥٢-١٥٣، ط١).

* القدرية: اسم أطلقه أهل السنة على من قال بالقدر أي قدرة الناس على أفعالهم ونفي قدرة الله، وهم المعتزلة الذين اعتنقوا هذا المبدأ، رغم رفض المعتزلة لهذا الاسم، وكان أول من قال بالقدر: معبد الجهني وكان يجالس الحسن البصري ثم تركه. (انظر د. علي المغربي: الفرق الكلامية الإسلامية، ٢٠٦).

* المرجئة: من أرجأ أو أخر العمل عن الإيمان، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، ونشأت بسبب الكلام على مرتكب الكبيرة أهو مؤمن أم لا، وقيل بدأ لما قتل عثمان رضي الله عنه فامتنعت طائفة من الحكم بينه وبين علي رضي الله عنه وقالوا: نرجئ أمرهما إلى الله لما قالت طائفة: علي كان أولى بالإمامة. (انظر محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ١١٩ وما بعدها).

روي عن سعيد بن المسيب أنه قال وقعت في الأمة الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان رضي الله عنه فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية يعني الحرة فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترفع وللناس طباخ أي لم يتبق من الصحابة أحد(٢).

إذاً:هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة.

- فالشيعة غلوا في علي.
- الرافضة رفضوا علياً.
- الخوارج غلوا في الوعيد.
- المرجئة غلوا في الوعد.
- الجهمية غلوا في التنزيه (وقعوا في نفي الصفات).
- المشبهة* غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه(١).

---

* الجهمية: زعيمهم جهم بن صفوان الذي تتلمذ على يد معبد الجهني، وعظمت فتنته توفي سنة ١٢٨هـ،أول ما ظهرت في المائة الثانية من الهجرة لما عرِّبت كتب اليونان، من أصولهم إنكار الصفات والقول بأن كلام الله مخلوق والقول بنفي القدر. (انظر الفَرق بين الفِرق، ١٩٩، الملل والنحل، ٨٧/١).

(٢) انظر البخاري، ك المغازي، رقم ٣٧٢٠.

* المشبهة: الذين ساووا بين الخالق والمخلوق في الصفات أو الذات، ظهروا عن أصناف من الروافض الغلاة، منهم البيانية، وقيل عن السبئية وهم نوعان: منهم من

ثم استمر لقب أهل السنة والجماعة* على عمومه وشموله حتى وجدت المدارس العقدية وانتسب كل قوم لعلمائهم:

فانتسب قوم لأصحاب الحديث (الأثرية).

وآخرون لأبي الحسن الأشعري (الأشعرية).

وآخرون لأبي منصور الماتريدي (الماتريدية).

ففي خراسان والعراق والشام مشهور أن أهل السنة هم الأشاعرة.

وأكثر الأقطار الأخرى مشهور أن أهل السنة هم الماتريدية.

وعند أهل الحديث وجمهور الحنابلة مشهور أن أهل السنة هم الأثرية.

واستمروا هكذا يحترم بعضهم بعضاً.

ولكن ظهرت هناك اختلافات لأسباب، وهي على نوعين:

أ- خلاف بين أهل السنة وغيرهم.

سبب هذا الخلاف:

١ - دخول الفلسفة إلى العالم الإسلامي فدخلت العقليات في

=

شبه ذات الله بذات المخلوق، ومنهم من شبه صفاته بصفاتهم. (انظر الفرق بين الفرق، ٢١٧، البريكان: القواعد الكلية: ٤١-٤٣).

(١) شرح الطحاوية، ٥٢٨.

* فنلاحظ أن هذا اللقب ظهر نظراً للاختلاف في مسائل عقدية كبرى تعتبر من ثوابت الإسلام لا قضايا مختلف فيها.

العلوم الإلهية.

٢ - تأثر بعضهم بشُبه اليهود والنصارى.

٣ - دخول بعض الأعراب وبعض أهل الأديان الأخرى إلى الإسلام مع بقاء ما في صدورهم من ضغائن للمسلمين، ومنهم جماعة كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على هذا الدين (خرج منهم ابن سبأ وغيره).

ب- خلاف بين أهل السنة أنفسهم.

سبب هذا الخلاف:

١ - الاحتمال في بعض النصوص (يجعل دلالتها ظنية).

٢ - التفاوت بين العلماء في فهم النصوص واختلاف مداركهم وتنوع مناهجهم في الوصول إلى الأحكام، فكما اختلف كثير من الصحابة في المسائل الفقهية، اختلفوا في بعض المسائل العقدية.

أمثلة الاختلافات العقدية:

١ - رؤية الرسول ﷺ ربه في يوم الإسراء.

٢ - اختلافهم في تعريف الكرسي، وأيهما أسبق الحوض أو الميزان.

٣ - اختلافهم في الإسراء هل كان بالروح فقط أم بالجسد مع الروح.

٤ - اختلافهم في حديث الميت وهل يعذب ببكاء أهله؟

موقف أهل السنة من هذه الاختلافات: لا تؤثر في وحدة

الجماعة، لأنها قضايا خلافية.

القاضي عياض يقول في رؤية نبينا ﷺ لله تعالى يوم المعراج: (وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص إذ المعول على آية النجم والتنازع فيها مأثور والاحتمال ممكن ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ).

الأصل:

الاختلاف في كبرى المسائل (سواء فقهي أو عقدي) غير وارد.

الاختلاف في صغرى المسائل من (فقهي أو عقدي) وارد.

والقول أن الاختلافات كانت في الفقه فقط غير صحيح.

نعم ضاق الخلاف في باب العقائد نسبياً لأن الأصول والثوابت لا تتغير، وتوسع في الفقه لاتساع الأمة وعالمية الرسالة ومرونة الشريعة.

أمثلة للاختلافات الفرعية:

القراءة خلف الإمام في الصلاة، كيفية صلاة الوتر، سجود السهو، وضع اليد في الركوع، كثير من أحكام الصلاة والصيام[1].

صفة أهل السنة:

البغدادي صاحب كتاب (الفَرق بين الفِرق) يقول: فأما الفرقة الثالثة

---

(١) السفاريني: لوامع الأنوار، ٧٣/١، ط٢، مؤسسة الخافقين، ومقدمة الفَرق بين الفِرق، ٤-٥.

والسبعون: فهي أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث دون من يشتري لهو الحديث، وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم ومتكلمو أهل الحديث فيهم، كلهم متفقون على مقالة واحدة في: توحيد الصانع- وصفاته وأسمائه وفي عدله وفي حكمته وفي أبواب النبوة والإمامة وفي أحكام الآخرة وفي مسائل أصول الدين. وإنما يختلفون في:

الحلال والحرام من فروع وأحكام- أو بعض فروع العقائد- وليس بينهم فيما اختلفوا فيه منها تضليل ولا تفسيق.

وهم الفرقة الناجية، ويجمعها الإقرار بتوحيد الصانع وقدم صفاته الأزلية وإجازة رؤيته من غير تشبيه ولا تعطيل.

مع الإقرار بكتب الله ورسله وتأييد شريعة الإسلام وإباحة ما أباحه القرآن، وتحريم ما حرمه القرآن مع قبول ما صح من سنة الله ورسوله ﷺ واعتقاد الحشر والنشر وسائر أمور الآخرة.

فمن قال بهذه الحجة التي ذكرناها، ولم يخلط إيمانه بها بشيء من بدع الخوارج والروافض والقدرية، وسائر أهل الأهواء فهو من جملة الفرقة الناجية، إن ختم الله له بها ودخل في هذه الجملة جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي وأهل الظاهر.

ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل عن صفة المؤمن قال:

صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة: من يشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأقر بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل وعقد قلبه على ما أظهر من لسانه ولم يشك في إيمانه ولم يُكَفِر أحداً من أهل التوحيد بذنب وفوض أمره إلى الله ولم يقطع بالذنوب العصمة من عند الله، وترحم على جميع أصحاب محمد ﷺ كبيرهم وصغيرهم، وأن القرآن كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق والإيمان قول وعمل يزيد وينقص... الخ[1]

ويقول الإمام الشاطبي في الاعتصام ما خلاصته: "إنَّ الخلاف بين الفرق المُخرِج عن الفرقة الناجية هو الخلاف في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات"[2].

وقال ابن تيمية رحمه الله: "فما زال في الحنبلية من يكون ميله إلى نوع من الإثبات الذي ينفيه طائفة أخرى منهم، ومنهم من يمسك عن النفي والإثبات جميعاً ففيهم جنس التنازع الموجود في جميع الطوائف، لكن نزاعهم في مسائل الدق، وأما الأصول الكبار فهم متفقون عليها ولهذا كانوا أقل الطوائف تنازعاً وافتراقاً، لكثرة

---

(١) انظر ص ٢٦-٢٨.

(٢) انظر ص ٧١٢/٢.

اعتصامهم بالسنة والآثار، لأن للإمام أحمد في باب أصول الدين من الأقوال المبينة لما تنازع فيه الناس ما ليس لغيره.

وأقواله مؤيدة بالكتاب والسنة واتباع سبيل السلف الطيب ولهذا كان جميع من ينتحل السنة من طوائف الأمة- فقهائها ومتكلمتها وصوفيتها- ينتحلونه.

ثم قد يتنازع هؤلاء في بعض المسائل فإن هذا أمر لا بد منه في العالم، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن هذا لا بد من وقوعه وأنه لما سأل ربه ألّا يلقى بأسهم بينهم منع ذلك.

فلابد في الطوائف المنتسبة إلى السنة والجماعة من نوع تنازع لكن لا بد فيهم من طائفة تعتصم بالكتاب والسنة كما أنه لا بد أن يكون بين المسلمين تنازع واختلاف، لكنه لا يزال في هذه الأمة طائفة قائمة بالحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة.

ولهذا لما كان أبو الحسن الأشعري وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة كان منتحلاً للإمام أحمد، ذاكراً أنه مقتد به، متبع سبيله.

وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لكثير من أصحاب الإمام أحمد ما هو معروف(١).

المبحث الثاني:أهل السنة والجماعة هم أهل العدل والإنصاف.

الإسلام جاء ليقيم الحق والعدل بين الناس، قال تعالى:

---

(١) انظر الفتاوى، ٤/١٦٧-١٦٦.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾[1] ، فالمسلمون هم أهل الميزان الذي تنضبط به العدالة ويتحقق الإنصاف، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[3].

وحرم الإسلام الظلم كما جاء في الحديث: ((**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا**))[4]، وقال ﷺ ((**من صلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو مسلم له مالنا وعليه ما علينا**))[5]

(١) العدل والإنصاف مع غير المسلمين:

قال تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[6]. ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[7] .

(٢) إنصاف أهل السنة والجماعة للمبتدعة:

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٩).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٥٢).

(٣) سورة النساء، الآية (١٣٥).

(٤) رواه مسلم عن أبي ذر في البر والصلة باب تحريم الظلم.

(٥) رواه مسلم، ك الفتن، ح رقم ٢٠٢٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية (١٥٩).

(٧) سورة الممتحنة، الآية (٨).

إذا كنا مأمورين بالإنصاف مع الكفار واليهود والنصارى فأن نكون منصفين لأهل البدعة ممن لم يخرجوا عن الإسلام أولى.

يقول ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ اعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا، فكيف إذا كان البغض لفاسق، أو مبتدع من أهل الإيمان؟ فهو أولى ويجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له[2].

أمثلة تثبت ذلك:

١) يذكر ابن تيمية أن أهل البدع غير المكفرة خير من اليهود والنصارى:

يقول: (كل من كان مؤمناً بما جاء به محمد ﷺ فهو خير من كل من كفر به، وإن كان في هذا المؤمن نوع من البدعة سواء كانت بدعة الخوارج أوالشيعة أوالمرجئة أوالقدرية أو غيرهم، فإن اليهود و النصارى كفار كفراً معلوماً بالاضطرار من دين الإسلام. والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول لا مخالف له لم يكن كافراً به.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٨).

(٢) الاستقامة، ١/٣٨، تحقيق محمد رشاد سالم.

ولو قدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذب الرسول)[1].

٢) الإقرار بأن أهل البدع غير المكفرة فيهم إيمان وتقوى:

يقول شيخ الإسلام: (ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطناً وظاهراً لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة، فهذا ليس بكافر ولا منافق ثم قد يكون فيه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا، وقد يكون مخطئا مغفورا له خطؤه، وقد يكون مع ذلك معه الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية من الله بقدر إيمانه وتقواه)[2].

٣) اعتراف شيخ الإسلام بفضائل المبتدعة وجهودهم في نشر الإسلام:

يقول رحمه الله: (وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفارا).

إلى أن قال: (وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة، لكن قد يردون باطل الكفار من أهل الكتاب والمشركين بباطل المسلمين فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً وأخص من هؤلاء من يردون

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠١/٣٥.

(٢) المرجع السابق، ٣٥٣/٣-٣٥٤.

البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها)[١].

٤) ومن ذلك موقف شيخ الإسلام من الذين خالفوه وكفروه من أهل البدع:

قال رحمه الله: (هذا وأنا في سعة صدر لمن يُخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيَّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه بل أضبط ما أقوله أو أفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه...، وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه)[٢].

٥) ومن ذلك كلامه في التفضيل بين طوائف المبتدعة بحسب قربها من الحق وذكر ما في بعضها من صفات حسنة:

فقال رحمه الله: (والرافضة فيهم من هو متعبد ورع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء، فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم وأقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج... ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام

---

(١) المرجع السابق، ١٣/٩٦-٧٩.

(٢) الفتاوى، ٣١/١٤٥-٢٤٦.

مطلقاً كما تقدم)[1].

٦) ومن إنصاف شيخ الإسلام أنه حينما يتعرض لعلماء فيهم بدعة فإنه يذكر محاسنهم ومحاولة الاعتذار لهم:

فمثلاً حينما نقل كلام أبي أمامة المالكي في أبي ذر الهروي قوله: (لعن الله أبا ذر الهروي، فإنه أول من حمل الكلام* إلى الحرم وأول من بثه في المغاربة) علَّق شيخ الإسلام على هذه العبارة فقال: (أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به)[2].

ثم يُحاول أن يعتذر لأبي ذر وأمثاله فيقول:

(ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساعٍ مشكورة وحسنات مبرورة له من الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لأهل السنة ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، لكن لما التبس على الناس هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس

---

(١) منهاج السنة، ٥/١٥٧.

* يعني علم الكلام والمنطق.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٢١/١٠١.

بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل وخيار الأمور أوساطها)[١].

وقال شيخ الإسلام فيمن قال بخلق القرآن: وهذا الذي نقلوه – من إنكار أبي حامد وغيره على القاضي أبي بكر الباقلاني – هو بسبب هذا الأصل وجرى له بسبب ذلك أمور أخرى وقام عليه الشيخ أبو حامد و الشيخ أبو عبد الله ابن حامد وغيرهما من العلماء من أهل العراق وخراسان والشام وأهل الحجاز ومصر مع ما كان فيه من الفضائل العظيمة والمحاسن الكثيرة والرد على الزنادقة والملحدين وأهل البدع [٢].

٧) الإمام الذهبي يتحرى العدل والإنصاف في الكلام على الرجال:
وتجلى ذلك مع المبتدعة من ذلك كلامه عن (قتادة السدوسي) وكان ممن قال بالقدر قال في ترجمته: "ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يُريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر زلله ولا نُضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا

---

(١) المرجع السابق، ١٠٢/٢٢.

(٢) المرجع السابق،٢/٩٢-١٠٠.

نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك"[١].

ويقول الذهبي: (ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في إحدى المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نضر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، ثم قال: والخوض في ذلك لا يجوز)[٢].

ومن ذلك قوله في ترجمة رأس الصوفية عبد الواحد بن زيد: "الزاهد القدوة شيخ العباد"[٣].

ومن ذلك قوله في عمر بن عبيد رأس المعتزلة: "الزاهد العابد" وعند نقله كلام يحيى بن معين عن الدهرية قال: (لعن الله الدهرية فإنهم كفار وما كان عمرو هكذا)[٤]. وهناك أمثلة كثيرة تدل على أن منهج أهل السنة قائم على إنصاف المخالفين لهم وحرصهم على إعطاء كل ذي حق حقه، والأخذ بقاعدة الموازنة بين الحسنات والسيئات، فمن كانت حسناته غالبة لا ينظر إلى سيئاته، ونقتدي بالحسنة ونجتنب السيئة.

كلام ابن تيمية عن الصوفية: وما أحدثوه من السماع والرقص

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٥/٢٦٩-٢٨٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق٩/١٠٤.

(٤) المرجع السابق.

وتمزيق الثياب حيث قال: (والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص غمرت حسناتهم ما كان لهم من غيره من السيئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيل كل صالحي الأمة في خطئهم وزلاتهم)[١].

ويقول ابن القيم: (وهذه الشطحات للصوفية أوجبت فتنتين على طائفتين من الناس إحداها حجبت بها محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساؤوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف فلو كان من أخطأ أو غلط تُرِك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات وطائفة حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها)[٢].

ثم يقول: (وهذه الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد ولم تُضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ)[٣].

---

(١) الاستقامة، ١/ ٢٩٧.

(٢) مدارج السالكين، ٢/٤٩-٥٠.

(٣) المرجع السابق.

المبحث الثالث:قواعد في منهاج أهل السنة والجماعة مع الآخرين ويتضمن:

١ - حكم تكفير الشخص المعين.

٢ - البدع وأنواعها ومراتب أهلها.

قواعد في منهاج أهل السنة:

١- خطورة الحكم على المسلم بالكفر وأن ذلك لا يكون إلا ببرهان واضح بيّن.

يقول شيخ الإسلام: (وليس لأحد أن يُكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجة وتبين له المحجة. ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك)[1]، لذا شدد أهل السنة في إطلاق الكفر على معين وأن ذلك لا يكون إلا بتوفر شروط قوية.

٢- إن المقالة قد تكون كفراً ولكن لا يلزم تكفير قائلها وأنه لا تلازم بين البدعة وقائلها لأنه فرق بين التكفير بالعموم وتكفير المُعين.

حكم تكفير الشخص المعين

يقول شارح الطحاوية: (فإن الرجل يكون مؤمناً ظاهراً وباطناً لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه، إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً، فلا نقول إن

---

(١) الفتاوى،٢/٤٦٦.

إيمانه حبط بمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي. بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة، ولا نقول لا يكفّر بل العدل هو الوسط وهو (أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول ﷺ، أو إثبات ما نفاه أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي بما أمر به، يُقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص. ويُبين أنها كفر ويُقال من قالها فهو كافر)[١]. وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وتكفير من قال إن الله لا يُرى في الآخرة ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها.

يقول أبو يوسف ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدة حتى اتفق رأيي ورأيه، أن من قال بخلق القرآن فهو كافر)[٢]. فيطلق المعنى العام أو اللفظ العام (من قال كذا...) ولا يُحدد الشخص، لذلك قال السلف:

و أما الشخص المُعين إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على مُعين ألّا يُغفر له ولا يرحمه الله بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. والدليل (كان رجلان متواخيين من بني إسرائيل وكان أحدهما عيّر أخاه وهو على الدين،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية،١/٢٤٢-٢٤٣ ترتيب خالد فوزي.

(٢) المرجع السابق.

فيقول: أقصر، فيقول له: دعني أبُعِثت عليّ رقيباً، حتى مر عليه ذات يوم وقال له: أقصر، فقال: خلني وربي، قال: إن الله لا يغفر لك)[1].

لأسباب ثلاثة:-

١ - لأن الشخص المُعين يمكن أن يكون مُجتهداً مخطئاً مغفوراً له.

٢ - ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص.

١) ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله[2].

التوقف في أحكام الآخرة لا يمنع عقوبة الدنيا.

في صحيح البخاري عن عمر: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يُلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله قد جلده في الشراب فأتي به فقال رسول الله ﷺ: ((لا تلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله))[3].

يقول شارح الطحاوية: هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نُعاقبه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستتيبه فإن تاب وإلا قتلناه. ثم إذا

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٢٧٥/٤-ح٤٩٠١، وحسنه الألباني ص٣٥٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية،٢٤٣,٢٤٤/١.

(٣) البخاري في الحدود باب ما يكره من لعن شارب الخمر، ٧٥/١٢،ح٦٧٨٠

كان القول في نفسه كفراً قيل: إنه كفر والقائل له يُكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا صار مُنافقاً زنديقاً. فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المُظهر للإسلام إلا من يكون منافقاً زنديقاً)[١].

إن إجراء الأحكام عقوبة في الدنيا لدفع ضرر فعلهم بين الناس لكن لا ينبغي إطلاق حكم معين عليهم نتهمهم فيه إلا بحجة.

يقول شيخ الإسلام: (وكذلك يجوز قتال البغاة وهم الخارجون على الإمام أو غير الإمام بتأويل سائغ مع كونهم عدولاً. ومع كوننا ننفذ أحكام قضائهم ونسوغ ما قبضوه من جزية أو خراج أو غير ذلك إذ الصحابة لا خلاف في بقائهم على العدالة. وذلك أن التفسيق انتفى للتأويل السائغ. وأما القتال فليؤدوا ما تركوه من الواجب، وينتهوا عما ارتكبوه من المحرم وان كانوا متأولين.

وكذلك: نُقيم الحد على من شرب النبيذ المختلف فيه، وإن كانوا قوماً صالحين. فتدبر كيف عوقب أقوام في الدنيا على ترك واجب أو فعل محرم بيِّن في الدين أو الدنيا وإن كانوا معذورين فيه لدفع ضرر فعلهم في الدنيا كما يقام الحد على من تاب بعد رفعه إلى الإمام وإن كان قد تاب توبة نصوحا ، وكما يغزو هذا البيت جيش من الناس فبينما هم ببيداء من الأرض إذ خسف بهم وفيهم المُكره

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢٩٩/١

فيُحشرون على نياتهم، وكما يُقاتل جيوش الكفار ومنهم المُكره كأهل بدر لما كان فيهم العباس وغيره، وكما لو تترس الكفار بمسلمين ولم يندفع ضرر الكفار إلا بقتالهم.

فالعقوبات المشروعة والمقدورة قد تتناول في الدنيا من لا يستحقها في الآخرة، وتكون في حقه من جملة المصائب كما قيل في بعضهم: القاتل مجاهد والمقتول شهيد"[1].

قصة قدامة بن مظعون:

شرب الخمر بعد تحريمه هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جُلِدوا وإن أصروا على استحلالها قُتلوا. وقال عمر لقدامة: أخطأت أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر، لأن الآية نزلت بسبب أن الله لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد أُحد فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله هذه الآية بين فيها أن من طعم الشيء في

---

(١) الفتاوى، ٣٧٦/١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية (٩٣).

الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين الصالحين. ثم إن أولئك علموا أنهم أخطؤوا وأيسوا من التوبة فكتب عمر إلى قدامة يقول له:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[١].

مثال آخر:

من قال : إذا أنا مت فأحرقوني واسحقوني في اليم[٢].... وقد غفر الله لهذا مع ما حصل له من الشك في قدرة الله وإعادته إذا أحرقوه[٣].

يقول شيخ الإسلام أيضاً:

(أما المُرجئة فلا يختلف قول أحمد في عدم تكفيرهم مع أن أحمد لم يُكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال إنه جهمي كفره، ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتحنوا وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد وأمثاله بل كان يرى إيمانهم وإمامتهم

---

(١) سورة غافر ، الآيات (١-٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري، ٥١٤/٦، ح رقم ٣٤٨١، وأخرجه مسلم، ٢١٠٩/٤، ح رقم ٢٧٥٦.

(٣) الفتاوى٦١٩/٧,٦١٨.

ويدعو لهم ويرى الائتمام بهم في الصلوات خلفهم والحج والغزو معهم والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم. وإن لم يعلموا أنه كفر، ويُنكره ويجاهد هم على رده بحسب الإمكان. فيجمع بين طاعة الله ورسوله وإظهار السنة و الدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة. وإن كانوا جهالاً مُبتدعين وظلمة فاسقين)[1].

سؤال يُجيب عليه ابن حزم:

إذا عذرتم من عذرتم من المجتهدين فاعذروا اليهود والنصارى والمجوس وسائر الملل فإنهم أيضاً مجتهدون قاصدون الخير؟

الجواب:

فجوابنا وبالله التوفيق أننا لم نعذر من عذرنا بآرائنا، ولا كفرنا من كفرنا بظننا وهوانا، وهذه خطة لم يؤتها الله أحداً دونه ولا يدخل الجنة والنار أحداً بل الله يدخلها من يشاء.

فصح أنه لا يكفر أحد حتى يبلغه أمر النبي ﷺ فمن بلغه فلم يؤمن به فهو كافر، فإن آمن به ثم اعتقد ما شاء الله أن يعتقده في نحلة أو فُتيا أو عمل ما شاء الله أن يعمله دون أن يبلغه في ذلك عن النبي ﷺ حكم بخلاف ما اعتقد أو قال أو عمل، فلا شيء عليه أصلاً حتى

---

(١) انظر الفتاوى،٣٤٨/٢٣ وشرح الطحاوية، ٢٥٠/١-٢٥١، ترتيب خالد فوزي.

يبلغه، فإن بلغه وصح عنده، فإن خالفه مجتهداً فيما لم يُبين له وجه الحق في ذلك فهذا مخطئ معذور مأجور مرة واحدة كما قال ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم.......) وكل مُعتقد أو قائل أو عامل فهو حاكم في ذلك الشيء وإن خالفه بعمله مُعانداً للحق مُعتقداً بخلاف ما عمل فهو مؤمن فاسق، وإن خالفه مُعانداً بقوله وقلبه فهو كافر مشرك سواء ذلك في المعتقدات والفُتيا[1].

٣- أن كل بدعة ضلالة وانحراف عن الدين ولكن البدع تتفاوت في ضلالها وخطورتها.

(أ) البدع المُكفرة وغير المكفرة (المفسقة):

يقول الشيخ حافظ حكمي: [ضابط البدعة المكفرة من أنكر أمرا مجمعاً عليه متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة من جحود مفروض أو فرض ما لم يُفرض أو إحلال محرم أو تحريم حلال أو اعتقاد ما ينزه الله ورسوله وكتابه عنه من نفي أو إثبات لأن ذلك تكذيب بالكتاب والسنة].

وهؤلاء الحكم عليهم بنوعين:

١) كفر صريح لا خفاء فيه كقول بعض الرافضة إن علياً إله من دون الله تعالى عن ذلك.

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٤٢/٣)، بتصرف.

٢) لا يطلق عليه كفر ولا مُعتَقِده كافر وإنما هي ضلال وزيغ عن الحق وعدول عن السنة والجماعة ولا يُطلق عليه كفر ولا معتقده كافر كقول المختارية من الرافضة إن علياً إمام من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله[١].

(ب) البدع الكبيرة والصغيرة:

البدع غير المكفرة أي المنقسمة إلى كبائر وصغائر، وجعل العلماء ضابط البدعة المعدودة من كبائر الذنوب: "ما أخل منها بأصل من الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والعقل المال"[٢].

ومن الأمثلة عليها:

بدعة تعذيب الصوفية أنفسهم بالتبتل، وبدعة تجويز نكاح أكثر من أربع لأئمة عند الرافضة، وبدعة الشيعة المفضّلة الذين يُفضلون علياً على أبي بكر وعمر وعثمان، وأما ضابط البدعة المعدودة من الصغائر فقد حصل فيه إشكال بسبب أن كل بدعة وإن صغرت إنما هي في حقيقتها تشريع زائد، كل بدعة عظيمة في مجاوزتها حدود الشرع إلا أنها وإن عظمت لما ذكرناه، تتفاوت رتبتها في أن بعضها أشد من بعض فقد يكون الشيء كبيراً في نفسه صغيراً بالنسبة إلى ما

---

(١) د. محمد عبد الوهاب خلاف: وثائق في محاربة الأهواء والبدع، ٣٥، نقلاً عن حقيقة البدعة للغامدي، ٨١٩.

(٢) الاعتصام، ٢/٥٧.

هو أكبر منه.

مثال البدع المعدودة من الصغائر:

بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وبدعة لبس الصوف تدينا، وبدعة الوقوف في الشمس على وجه العبادة، وبدعة الالتزام بصلاة نافلة مطلقة في زمن معين[١].

ضوابط وشروط وضعها العلماء لجعل البدعة من الصغائر هي:

١) ألّا يداوم عليها كما في الحال مع صغائر الذنوب لأن الصغيرة تكون كبيرة بالمداومة والإصرار.

٢) ألّا يدعو إليها، لأنه إذا دعا إليها فإنه سيتحمل وزر غيره ممن تبعه.

٣) ألّا تُفعل في المواضع التي هي مجتمعات للناس أو في المواضع التي تُقام فيها السنن وتظهر فيها أعلام الشريعة لأن فعلها في تلك الأماكن يكون كالدعوة إليها.

٤) ألّا يستصغرها ولا يستحقرها؛ لأن الاستهانة بالذنب أعظم من الذنب[٢].

(ج) البدع العملية والاعتقادية:

البدع نوعان:

---

(١) الغامدي: حقيقة البدعة وأحكامها، ٢/٢٠٦.

(٢) المرجع السابق.

النوع الأول: في الأقوال والاعتقادات.

النوع الثاني: في الأفعال والعبادات وهذا الثاني يتضمن الأول كما أن الأول يدعو إلى الثاني[1].

وأكثر من يقع في بدع الأفعال والعبادات عموم العباد إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة، لذلك نقول في الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ والمغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. قال سفيان: "كانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى".

مثال البدعة الاعتقادية والقولية:

بدعة الروافض والخوارج والمُرجئة والقدرية[2].

ومثال البدعة العملية العبادية:

الوصال في الصيام والذكر الجماعي والتعبد بالسهر والجوع.

(د) البدع الحقيقية والإضافية:

الحقيقية: (التي لم يدل عليها دليل شرعي لامن كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا استدلال مُعتبر عند أهل العلم).

مثالها: الذوق والكشف عند الصوفية، تقديم العقل على النص عند

---

(١) الفتاوى، ٢٢/٣٠٦.

(٢) المرجع السابق، ٢٢/٣٠٧.

المعتزلة،عصمة الأئمة عند الرافضة.

البدع الإضافية:

لها شائبتان:

(١) متعلقة بالأدلة الشرعية فلا تكون من هذه الجهة بدعة.

(٢) ليست متعلقة بالأدلة الشرعية فتكون من هذه الجهة بدعة.

ومعنى ذلك أن العمل يكون شرعياً في أصله ثم يُضاف إليه العمل البدعي فسميت إضافية.

مثالها: (أ) بدعة الجهر بالنية في الصلاة، ففيها جانبان:

- شرعي وهو مشروعية النية.
- بدعي وهو الجهر بها.

(ب) بدعة الذكر الجماعي، فالذكر مشروع وكونه في جماعة مبتدع.

يقول الشاطبي في الفرق بينهما: "فإن الحقيقية أعظم وزراً لأنها التي باشرها المنتهي بغير واسطة ولأنها مُخالفة محضة وخروج عن السنة ظاهر، كالقول بالقدر والتحسين والتقبيح ومعنى الإضافية: أنها مشروعة من وجه ورأي مجرد من وجه إذ يدخلها من جهة المُخترع رأي في بعض أحوالها فلم تُناف الأدلة من كل وجه[1].

٤- تفاوت أهل البدعة واختلاف أحوالهم وأثر ذلك في الحكم

---

(١) الاعتصام، ١/١٧١-١٧٢.

عليهم.

وعلى هذا لا يكون الحكم واحداً إنما لابد من التفريق بين مَنْ بِدعته مُكفِّرة ومَنْ بدعته غير مُكفِّرة وبين صاحب البدعة المعدودة من الكبائر، والمعدودة من الصغائر، والحقيقية والإضافية، وبين مَن صاحبها مُستتر بها أو مُعلن ومن جهة بينة أو مشكلة، ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه. وعليه فإن أهل البدع تختلف أحوالهم وليسوا على مرتبة واحدة.

مراتب أهل البدع:

- فهناك المُبتدع الجاهل.

وهذا يختلف حكمه بحسب الجهل فإن كان بسبب تقصيره في طلب العلم وهو قادر فهذا غير معذور بجهله، وإن كان غير قادر على طلب العلم وهو مُقيم بدار الإسلام والمسألة مُشتهرة فهذا غير معذور أيضاً.

متى يُعذر بالجهل؟ مَن كان حديث عهد بالإسلام، أو عاش في بلاد نائية ليس فيها علماء، وكذلك العاصي الذي لم يجد سوى علماء الابتداع، أو المُقلد الذي يقتدي بعالم مُبتدع لا يجد سواه فهؤلاء معذورون[1].

وفي آخر الزمان تكثر البدع ويكثر الجهل. كما في الحديث

---

(١) الغامدي: حقيقة البدعة، ٢/٢٢٦-٢٢٧.

المعروف : ((يأتي على الناس زمان لا يعرفون صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا عمرةً إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، ويقولون : أدركنا آباءنا وهم يقولون (لا إله إلا الله) فقيل: تُنجيهم من النار))[1].

يقول ابن تيمية: (ولهذا فإن كل من كان أعرف بباطن المذهب وحقيقته كان أعظم كفراً وفسقاً) إلى أن قال: (وأما الجهال الذين يُحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفقهونه فهؤلاء تجد فيهم إسلاماً وإيماناً ومتابعة للكتاب والسنة).

ويتبين من هذا :

أن المُبتدع إذا كان جاهلاً جهلاً يُعذر به لا يقع عليه الإثم إلا بعد بلوغ الحجة الصحيحة وثبوت الخطاب الشرعي في حقه وهذا يدعو إلى التريث وعدم الاستعجال في الحكم واتخاذ المواقف. ولا يُغتر اليوم بالمتعلمين وكثرتهم فكثير من خريجي الكليات والمعاهد يعدون من العوام لقلة بضاعتهم[2].

- المُبتدع المُتأول (عنده شبهة جواز).

١) عنده شبهة ساقطة هي أصلاً تكذيب بالدين مثل تأويلات الباطنية بوجود إلهين قديمين فهذا تأويل غير سائغ (متضح

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/١٢٧، رقم ٨٧.

(٢) محمد العلي: أهل السنة، ٥٢.

كفره).

٢) اعتماده على شبهة لها وجه مرجوح ومضاد للأدلة الصحيحة ، كاعتمادهم على أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو أدلة صحيحة لكن لا وجه للاستدلال بها أو اعتمادهم على أدلة غير شرعية كالرأي أو الكشف أو الذوق أو العقل أو الرؤى (معذور متأول).

٣) اعتمادهم على شبهة تكون من الأدلة المُختلف في ثبوتها أو ضعفها مثل: أصحاب الدعاء الجماعي (بدعة إضافية).

حكمه:

الأول مُتضح كفره. والثاني يُعذر بتأويله. يقول ابن حجر في فتح الباري قال العلماء كل متأول معذور بتأويله ليس بآثم إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب، وكان له وجه في العلم[١].

يقول ابن أبي العز الحنفي: (والقول قد يكون مخالفاً للنص وقائله معذور، فإن المخالفة بتأويل لم يسلم منها أحد من أهل العلم، وذلك أن التأويل وإن كان فاسداً فصاحبه مغفور له لحصوله عن اجتهاد، فإن المجتهد إذا اجتهد وأصاب فله أجران : أجر على اجتهاده وأجر على إصابته الحق ؛ وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له، فمخالفة النص وإن كانت عن قصد فهي

(١) فتح الباري، ١٢/٣٠٤.

كفر، وإن كانت عن اجتهاد فهي من الخطأ المغفور)[١].

ويتضح لنا من خلال أقوال العلماء أن التأويل السائغ مضبوط بضوابط هي:

- ألّا تكون بدعته مخالفة لما هو معلوم من الدين بالضرورة (أصل).
- أن يكون تأويله سائغاً له وجه مقبول من اللغة العربية أو العلم.
- أن يعلم بقرائن الأحوال أنه لم يقصد بفعله معارضة الشريعة أو مناورة السنة.
- ألا يكون تأويله صادراً عن هوى وتعصب وإنما صدر عن اجتهاد في معرفة الحق[٢].

يقول الشيخ ابن عثيمين: (وأما موقفنا من العلماء المؤولين فنقول من عرف منهم بحسن النية وكان له قدم صدق في الدين واتباع السنة فهو معذور بتأويله السائغ. فالقول الخطأ إذا كان صادراً عن اجتهاد وحسن قصد لا يُذم قائله، بل يكون له أجر على اجتهاده. وأما وصفه بالضلال فإن أُريد بالضلال المطلق الذي يذم به الموصوف ويُمقت عليه، فهو لا يتوجه في مثل هذا المجتهد الذي

---

(١) الاتباع، ٢٩.

(٢) العلي: إنصاف أهل السنة، ٥٥.

عُلِم منه حسن النية، وإن أُريد بالضلال مخالفة قوله للصواب من غير إشعار بذم القائل فلا بأس بذلك[1].

والأولى عدم استعمال كلمة الضلال لأنها كلمة موهمة والأحسن استعمال كلمة الخطأ[2].

- قسم يختلف في كفره وإعذاره.

لأنه ارتكب بدعة مُكفرة وهو من أهل القبلة فيتوقف في كفره أو عدمه. لماذا؟ لأنه لا يخلو من أحد الأمرين:

١- أن يكون فيه إيمان ظاهر وباطن فهذا ليس بكافر ولا منافق وقد يكون خطؤه مغفوراً بل قد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يبلغ به ولايةَ الله.

٢- أن يكون باطنه الزيغ والمروق والعناد فهذا منافق زنديق[3].

- العالم غير المتأول: ليس له تأويل أو شبهة فهو آثم غير معذور وحكمه فاسق إن كانت بدعته مفسقة أو كانت بدعته مكفرة.
- المبتدع الداعي إلى بدعته: يُفرِّق أهل السنة بين الداعي وغيره لأنه أدى إلى الاقتداء به والاجتماع حوله. والتفريق بين

---

(١) المجموع الثمين، ٣/٢٤-٢٥.

(٢) العلي: إنصاف أهل السنة، ٥٥.

(٣) الغامدي: حقيقة البدعة، ٢/٢٩٩-٣٠٠.

الإسرار بالبدعة والإعلان بها[١]، وعلى هذا فلا نحكم إلا بعد معرفة حال صاحب البدعة من الجهل والعلم والتأويل السائغ أو غير السائغ أو الإسرار أو الإعلان، وهذا هو ما يقتضيه العدل.

٥- أنه قد يجتمع في الشخص الواحد الإيمان والنفاق والإيمان وبعض شعب الكفر، وتجتمع السنة والبدعة ومُقتضيات الولاء والبراء.

قد يكون الرجل مؤمناً ولكنه يرتكب خصلة من خصال النفاق أو يعمل عملاً كفرياً لا يخرجه من الملة، وقد يكون المسلم متلزماً بالنسبة، ولكنه مع ذلك يفعل بعض البدع.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ليس كل من دخل عليه شعبة من شعب النفاق والزندقة فقبلها جهلاً أو ظلماً يكون كافراً أو منافقاً في الباطن، بل قد يكون معه من الإيمان بالله ورسوله ما يُجزيه الله عليه، ولا يظلم ربك أحداً)[٢].

فأهل السنة والجماعة يُعطون كل ذي حق حقه فيُوالى على قدر ما فيه من الإيمان والسنة والخير، ويُعادى بقدر ما فيه من النفاق والبدعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا اجتمع في الرجل

---

(١) الاعتصام، ١/٦٩.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٥/٣٠٥.

الواحد خير وشر وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة فيجتمع له من هذا وهذا)[1].

ويطبق هذه القاعدة الذهبي في حكمه على الرجال: فالذهبي رحمه الله يبدأ بالثناء على الرجل وتبيين محاسنه وأعماله الطيبة، ثم يُبين ما وقع فيه من الخطأ وما انتحل من البدع، فمثلاً في ترجمة "ابن تومرت البربري" بدأ بذكر ألقابه وصفاته الحسنة فقال: "الشيخ، الإمام الفقيه، الأصولي، الزاهد، كان أمَّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر، قوي النفس، شجاعاً، ذا هيبة ووقار وجلالة في المعاملة، انتفع به خلق، واهتدوا في الجملة، وملكوا المدائن وقهروا الملوك...، وكان خشن العيش فقيراً قانعا باليسير" ومع ذلك لا ينسى الذهبي أخطاءه وما وقع فيه من البدعة فقال: "وكان لهجاً بعلم الكلام، خائضاً في مزال الأقدام، وربط البربر بادعاء العصمة، وأقدم على الدماء إقدام الخوارج"[2].

ولا ريب أن المقصود باجتماع الإيمان والنفاق: النفاق العملي وليس الاعتقادي المُخرج من الملة، وكذلك المقصود باجتماع

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٨/٢٠٩.

(٢) سير أعلام النبلاء، ١٩/٥٣٩-٥٤١.

الإيمان وبعض شعب الكفر: الكفر العملي لا الاعتقادي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[1].

٦- الخطأ في بعض المسائل الدقيقة في العقيدة لا يوجب التضليل والتبديع.

هناك مسائل عقدية دقيقة حصل فيها خلاف بين الصحابة مثل مسألة التفضيل بين علي وعثمان رضي الله عنهما، ومسألة رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء....الخ. ومثل هذه المسائل الدقيقة لا توجب التضليل والتبديع، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء هذه الأمة.

وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب

(١) رواه البخاري ٢٢/١ح رقم ٣٣، ومسلم في الإيمان ، ٧٨/١ ، رقم ٥٩

إمكانه هو أحق أن يتقبل الله حسناته، ويُثيبه على اجتهاداته، ولا يؤاخذه بما أخطأ"[1].

ويقول أيضاً مبيناً أن المسائل الدقيقة في مسائل الأصول كثر فيها الخلاف فقال: "فإن مسائل الدق في الأصول لا يكاد يتفق عليها طائفة، إذ لو كان كذلك لما تنازع في بعضها السلف من الصحابة والتابعين وقد ينكر الشيء في حال دون حال، وعلى شخص دون شخص". ويضع شيخ الإسلام حداً للمسائل التي يُبدع قائلها فيقول: "نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يُعذر فيه، فهذا يُعامل بما يُعامل به أهل البدع"[2].

ويضرب شيخ الإسلام أمثلة للمسائل التي وقع فيها خلاف ويُعذر فيها المخالف. فقال: "فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمداً رأى ربه، وقالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وجمهور الأمة على قول ابن عباس، مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها وكذلك أنكرت أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي، وكذلك معاوية نقل عنه في أمر المعراج أنه كان

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠/١٦٦.

(٢) الفتاوى، ٣/٥٦.

بروحه، والناس على خلاف معاوية ومثل هذا كثير".

الاختلاف في بعض أمور العقائد:

وقد ذكر أمثلة أخرى في موضع آخر فقال: "والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية كما قد بسط في غير موضع، كمن اعتقد ثبوت شيء بدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يُعارضه، ويبين المراد ولم يعرفه، مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أن الله لا يُرى، لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]، ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، إنها تنتظر الثواب كما نقل عن مجاهد وأبي صالح. أو اعتقد أن علياً أفضل الصحابة، لاعتقاده صحة حديث الطير، وأن النبي ﷺ قال: «اللهم ائتني بأحب الخلق إليك

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٣

(٢) سورة الشورى، الآية ٥١

(٣) سورة القيامة، الآيتان ٢٢- ٢٣

يأكل معي هذا الطائر»[1].

وقد بين شيخ الإسلام أن بعض مسائل الاعتقاد لا يجب معرفتها على جميع المسلمين؛ لأن ذلك فيه فتنة لبعضهم لعدم اتساع مداركهم لفهمها، فقال: "ومما يتصل بذلك أن المسائل الخبرية العلمية قد تكون واجبة الاعتقاد، وقد تجب في حال دون حال، وعلى قوم دون قوم، وقد تكون مستحبة غير واجبة، وقد تكون معرفتها مضرة لبعض الناس، فلا يجوز تعريفها بها، كما قال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟". وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم". وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه لمن سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[2]، فقال: "ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت؟ وكفرك تكذيبك بها، وقال لمن سأل عن قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾[3] هو يوم أخبر الله به، الله أعلم به. وقد بوب البخاري بابا عنوانه: باب من ترك بعض الأخبار مخافة أن يقصر فهم بعض

(١) رواه الترمذي، باب مناقب علي بن أبي طالب، جامع الأصول، ٦٥٣/٨.

(٢) سورة الطلاق، الآية ١٢

(٣) سورة المعارج، الآية ٤

الناس عنه فيقعوا في أشد منه.وباب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألّا يفهموا[١].

وعليه فقد تبين لك أن القول قد ينكر في حال دون حال وعلى شخص دون شخص وأن العالم قد يقول القولين الصوابين كل قول مع قوم لأن ذلك هو الذي ينفعهم مع أن القولين صحيحان لا منافاة بينهما، لكن قد يكون قولهما جميعا فيه ضرر على الطائفتين، فلا يجمعهما إلا لمن لا يضره الجمع".

ومما يؤكد النهي عن امتحان الناس في المسائل الدقيقة من العقيدة أن أهل البحرين أرسلوا إلى شيخ الإسلام رسالة يسألونه فيها عن مسألة (رؤية الكفار ربهم يوم القيامة) وأنه وقع في ذلك خلاف أدى إلى التنازع، فبين أن هذه المسألة لا توجب التنازع، والأمر فيها خفيف، وأن الخلاف فيها لا يوجب التهاجر والتقاطع قال رحمه الله: "وليست هذه المسألة فيما علمت ما يوجب المهاجرة والمقاطعة فإن الذين تكلموا فيها قبلنا بما فيهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا، كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم، والناس من بعدهم في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا"[٢].

---

(١) فتح الباري، ١/٢٢٤-٢٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى، ٦/٥٠٢.

وكذلك لا يفاتحون فيه عوام المسلمين الذين هم في عافية وسلام من الفتن، ولكن إذا سئل الرجل عنها، أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو به النفع.

المبحث الرابع: ضوابط وآداب أهل السنة والجماعة في الحكم على المخالفين

إن التحقق بصفة العدل، وسلوك درب المنصفين يلزم معه التأدب بآداب خاصة، هذه الآداب التزم بها أهل السنة والجماعة.

والكلام في نقد الرجال وإصدار الحكم منزلق خطير لابد من ضبطه وإحكامه حتى لا يتجرأ المتجرئون فيجرح العدل ويقدح في الثقة، وإليك أهم هذه الآداب:

أولاً: التجرد وتحري القصد عند الكلام على المُخالفين.

مطلوب من المسلم أن يُخلص في كل قول وعمل، وقد تلتبس المقاصد عند الكلام عن المخالفين، فهناك قصد حب الظهور، وقصد التشفي والانتقام، وقصد الانتصار للنفس أو للطائفة التي ينتمي إليها الناقد، وقد حذر شيخ الإسلام ابن تيمية من يرد على أهل البدع من التباس المقاصد، يقول رحمه الله مبيناً خطر الهوى: "وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون معه مع ذلك شبهة دين أن

الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وأنه الحق وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحمية لنفسه وطائفته، أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو لغرض من الدنيا لم يكن لله، ولم يكن مجاهدا في سبيل الله"[١].

فانظر إلى ما يحدثه الهوى والتعصب من البغي والظلم والفتن فتجد بعض المسلمين يقيم ولاءه وبراءه على أساس الانتماء لطائفته أو جماعته، أو لسائرين على منهجه، فيواليهم ويتبرأ من المسلمين الذين خالفوه مخالفة لا تخرجهم عن الإسلام.

يقول الإمام ابن القيم واصفاً من يتعصب لرأي أو هوى: "وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فلا يغتر باللفظ"[٢]. وكما قيل: "والحق قد يعتريه سوء تعبير".

ثانياً: أهمية التبين والتثبت قبل إصدار الأحكام واتخاذ المواقف.

إن الاستعجال في إصدار الأحكام على الآخرين واتخاذ المواقف منهم أو توجيه نقد إليهم يعرض صاحبه للزلل و الخطإ، إذ لا بد

---

(١)) منهاج السنة، ٥/ ٢٥٦.

(٢)) مفتاح دار السعادة،، ١/١٤١.

من التثبت، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[1]، لقد عاب الله تعالى على المتسرعين في نقل الأقوال وإشاعة الأخبار من غير تبين فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[2] وتتأكد أهمية التبيّن والتثبت في هذا العصر الذي قل فيه العلم وضعف الإيمان، وفشا فيه الهوى، وتجرأ على الكذب فيه كثير من الناس، وخاصة في أدوات ووسائل نقل الأخبار كالصحف ووكالات الأنباء التي تعتمد على أسلوب الإثارة والتضخيم والزيادة والتحريف في الأخبار والتحليلات، واستهداف ضرب العلماء والدعاة بعضهم ببعض، وزرع الفتنة بين شباب الصحوة حتى ينشغلوا ببعضهم، وأكد الحسن البصري هذا المعنى فقال: "المؤمن وقّاف حتى يتبين".

وهنا بعض التنبيهات النافعة في موضوع التثبت وهي:

١- لا بد من التأكد من عدالة ناقلي الأخبار والأقوال لأن الله تعالى

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦

(٢) سورة النساء، الآية ٨٣

يقول: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾[1] فالفاسق لا يقبل قوله ولا يصدق خبره، وسماه الله فاسقاً لنقله الخبر حتى يتبين صدقه.

٢- لا بد أن يكون الناقل للقول أو الخبر ضابطاً متقناً جيد الفهم؛ لأن هناك من المؤمنين العدول من لا يكون ضابطاً، أو يكون سيئ الفهم، يفهم الكلام على غير معناه وإلى ذلك أشار النبي بقوله: ((نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها، ثم أداها لمن لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه))[2].

٣- الاتصال بالجهة أو الشخص الذي نقل الخبر أو الفتوى والتأكد من صدورها منه.

ثالثاً: لزوم حمل الكلام على أحسن محامله، ما دام يحتمل ذلك وإحسان الظن بالمسلمين.

اختصت اللغة العربية بأن الكلمة الواحدة تحتمل عدة معان مثل كلمة (وراء) تكون بمعنى أمام وخلف قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾[3] أي أمامهم.

ومنها كلمة (الصارخ) تكون بمعنى المستغيث والمغيث، ومما

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٨/٤.

(٣) سورة الكهف، الآية ٧٩

يدخل تحت ذلك أن الكلمة قد تكون حقيقية ومجازاً وكناية وتعريضاً، وتختلف الكلمة باختلاف سياقها وما يقصد كاتبها.

فمثال اختلاف معنى الكلمة الواحدة باختلاف البلدان والأماكن، ما ذكره ابن حبان أن أهل الحجاز يقولون (كذب فلان) ويقصدون أنه أخطأ[١].

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملا"[٢]. يقول ابن القيم: "والكلمة الواحدة يقولها اثنان يريد منها أحدهما أعظم الباطل ويريد الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه وما يدعو إليه ويناظر عليه"[٣].

وهذا ابن القيم يقدم الاعتذار عن الصوفية وما يصدر منهم من الكلمات المحتملة فقال: "فاعلم أن في لسان القوم من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف، ولهذا يقولون "نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة، والإشارة لنا والعبارة لغيرنا" وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى

---

(١) هدي الساري، مقدمة فتح الباري، ١/ ٤٢٦.

(٢) الدر المنثور للسيوطي: ٢٧٤.

(٣) مدارج السالكين، ٣/٢٣٠.

لا فساد فيه، وصار هذا سبباً لفتنة طائفتين: طائفة حملوا عليهم بظاهر عبارتهم فبدّعوهم وضللوهم، وطائفة نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم فصوَّبوا تلك العبارات وصححوا تلك الإشارات"[١].

وأورد ابن القيم بعض تلك الإشارات والألفاظ التي يستعملها الصوفية مثل: الاتصال والانفصال ومسامرة ومكالمة ثم قال: "والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها، وأرادوا بها معاني صحيحة في نفسها، فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه، ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم"[٢].

والأصل في المسلم أن يحاول الابتعاد عن الكلمات والألفاظ المحتملة وأن يستعمل الألفاظ الطيبة، وهذا ما جاء به الأدب القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[٣] ولكن إذا ما سمع السلف كلاماً محتملاً فإنهم لا يترددون في حمله على المحمل الحسن، وهناك أمثلة عديدة تدل على ذلك:

يقول ابن تيمية: " وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين

---

(١) مدارج السالكين، ٣/٢٣٠.

(٢) المرجع السابق، ١/٥١، وعقد الإمام ابن القيم فصلاً في كتاب زاد المعاد بعنوان: في ألفاظ كان ﷺ يكره أن تقال، وذكر منها "خبثت نفسي". (زاد المعاد، ٢/٢٧٣).

(٣) سورة الإسراء، الآية ٥٣

وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم، ولكن ليس به عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب مع صحة مقصوده"[١].

ومن ذلك أيضاً عندما حكى شيخ الإسلام مقالة الجنيد[٢]: "التوحيد إفراد القدم من الحدث" قال شيخ الإسلام: "قلت هذا الكلام فيه إجمال، والمحق يحمله محملا حسنا وغير المحق يدخل فيه أشياء، وأما الجنيد فمقصوده التوحيد الذي يشير إليه المشايخ، وهو التوحيد في القصد والإرادة، وما يدخل في ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة، وهو أن يفرد الحق سبحانه بهذا كله فلا يشركه في ذلك محدث"[٣].

فانظر إلى هؤلاء الأعلام كيف أنصفوا هؤلاء القوم، وحملوا عباراتهم محملا حسنا مع إمكانهم أن يحملوها على المحمل الآخر

---

(١) ابن تيمية: الاستقامة، ٢/١٠٥- ١٠٦.

(٢) الجنيد: أبو القاسم محمد (٢٩٧هـ) القواريري نسبة إلى صناعة أبيه، ولد بالعراق وأصله من نهاوند، وقد عُرف بسيد الطائفة أي (شيخ الصوفية)، كان شافعي المذهب، من تلاميذه: الحلاج، ولكنه أعلن عدم رضاه عن آرائه القائلة بالاتحاد والحلول، وتتلمذ الجنيد على يد المحاسبي والسقطي، ونقل الجنيد التصوف من مرحلة الزهد والبساطة إلى مرحلة التربية (انظر في التصوف الإسلامي ٥٤-٥٥، والشافعي، والعجمي، ط١٤٢٨هـ، دار السلام، مصر).

(٣) الاستقامة لابن تيمية، ١/٩٢.

ولكن هو الأدب العالي وحب الإنصاف.

رابعاً: ضرورة الجمع بين النصوص والمقالات وعدم اعتماد الناقد على نص واحد أو مقالة واحدة.

كثير من العلماء يتعرض إلى القضية الواحدة في أكثر من موضع وأكثر من كتاب فمرة يتحدث بصيغة الإجمال وأخرى بالتفصيل ومرة بالإطلاق وأخرى بالتقييد، وقد يتغير رأيه في المسألة الواحدة. ولا بد في هذه الحالة من جمع المقالات التي تعرض فيها لتلك القضية، ومن ثم حمل المجمل على المفصل والمبهم على الواضح، والعام على الخاص والمطلق على المقيد، ويرجح المنطوق على المفهوم والعبارة على الإشارة والجلي على الخفي، والمتأخر على المتقدم، تحقيقا للإنصاف ودرء التسارع في الانتقاد والاتهام.

فكثير من العلماء قال قولا يظن صحته، ثم يرجع عنه إلى قول آخر ومن ذلك قول الذهبي في ترجمة أبي بكر الشلبي "لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر فيقول أشياء يعتذر عنه فيها"[(١)]، فهل يؤاخذ أبو الحسن الأشعري بمذهبه في الصفات قبل أن يرجع عنه إلى مذهب السلف؟ وهل يجوز أن ينسب إلى ابن عباس القول بجواز

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء، ٢/ ١١٢٣، وانظر العلي: إنصاف أهل السنة، ٦٦ وما بعدها.

ربا الفضل وتجويز نكاح المتعة؟[1]

وإذا كان من آداب التعامل مع السنة النبوية أن تجمع الأحاديث الواردة في موضوع واحد ويرد متشابهها إلى محكمها ويحمل مطلقها على مقيدها، ويفسر عامها بخاصها، فكذلك يكون التعامل مع أقوال العلماء والدعاة والمفكرين[2].

خامساً: المسلم يوزن بحسناته وسيئاته، والعبرة بكثرة الصواب والمحاسن ومن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

يلحظ على بعض الذين ينتقدون المخالفين لهم أنهم يركزون على ذكر الأخطاء والنقائص والعيوب، ويغفلون الصواب والخير والحسنات، وهذا بخس وظلم للناس، ومخالفة لمنهج أهل الحق والعدل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((**إن أبغض الرجال إلى الله عز وجل الذي يقتدي بسيئة المؤمن ويدع حسنته**))[3].

---

(١) ثبت رجوع ابن عباس عن نكاح المتعة ، وكذلك إباحة ربا الفضل لما روى له أبوسعيد الخدري تحريم ذلك "انظر رسالة تحريم المتعة" لأبي الفتح المقدسي: ١٤٤ – ١٤٥ تحقيق: حماد الأنصاري.

(٢) انظر القرضاوي: كيف نتعامل مع السنة النبوية ، ١٠٣.

(٣) رواه الأصفهاني في التوبيخ والتنبيه: ١٧٥.

قال محققه "رجاله كلهم موثوقون" وأخشى أن تكون لهم علة فإن في متنه غرابة وليس في كتب السنة المشهورة.

وهذا ما دعا الشعبي أن يقول: "لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة واحدة لأعدوا علي تلك الواحدة"(١).

وهذا رسول الله ﷺ يُذكِّر عمر بحسنات حاطب بن أبي بلتعة حينما اتهمه عمر بالنفاق؛ لأن حاطبا بعث إلى قريش يعلمهم بعزم رسول الله على غزوهم، فقال رسول الله ﷺ لعمر: ((**وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**))(٢).

وهذه عائشة رضي الله عنها لم تنس مواقف حسان بن ثابت حينما كان ينافح بشعره عن رسول الله ﷺ فلما خاض في حديث الإفك سمعت عروة بن الزبير يسب حساناً فقالت: "يا ابن أخي دعه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ"(٣) وفي ذلك يقول محمد بن سيرين "ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما رأيت وتكتم خيره"(٤).

ويقول تلميذه الذهبي مقررا هذه القاعدة: "إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر زلله ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك".

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء، ١/ ٣٩٢.

(٢) رواه البخاري ،٤/١٨٥٥ ، رقم ٤٦٠٨ ، ٤ ، / ١٥٥٧ رقم ٤٠٢٥.

(٣) رواه البخاري ، ٣/ ٢٩٩ رقم ٣٨٨ ، ومسلم رقم ٢٤٨٧ ، ٤ / ١٩٣٣ – ١٩٣٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ٩/ ٢٧٥.

ويقرر هذه القاعدة أيضا تلميذه الآخر ابن القيم حيث يقول: "وأيضا فإنه يعفى للمحب وصاحب الإحسان العظيم مالا يعفى لغيره ويسامح بما لا يسامح به غيره وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده، فكسرها، وجر بلحية نبي مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ورفعه عليه وربه تعالى يحتمل له ذلك كله ويحبه ويكرمه ويدلله لأنه قام لله تعالى تلك المقامات العظيمة في مقابلة لأعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمَتَي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر"[١].

ثم قال: "فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح، ولم يعذب ووهبت له سيئاته لأجل حسناته"[٢].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "فإذا تحققتم الخطأ بينتموه، ولم تهدروا جميع المحاسن لأجل مسألة أو مائة أو مائتين أخطأت فيهن، فإني لا أدعي العصمة"[٣]. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ

---

(١) مدارج السالكين، ١/ ٣٢٨.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٢٨.

(٣) تاريخ نجد، ٢/ ١٦١.

أَشْيَآءَهُمْ ﴾[١].

سادساً: كلام الأقران يطوى ولا يُروى.

وهذه قاعدة قررها جمهور السلف، وعلماء الجرح والتعديل، فقد يحصل بين الأقران شيء من الاختلاف في المسائل العلمية، فيؤدي ذلك إلى وقوع بعضهم ببعض من غير عدل، وهذا الاختلاف بين الأقران لا يقع بين العلماء والمحدثين فقط بل يقع أيضاً بين الدعاة وشتى العاملين في حقل الدعوة الإسلامية وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "خذوا العلم حيث وجدتم. ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة"[٢].

وقال الإمام الذهبي: " كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة، أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من العصور سلم منه أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس"[٣].

ومن الأمثلة على ما يحدث بين الأقران:

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٨٣

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ١١.

(٣) المرجع السابق، ٢/ ٥.

ما أورده الذهبي في ترجمة الحافظ أبي نعيم فقال: "كلام ابن مندة في أبي نعيم فظيع لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، بل هما عندي مقبولان"[1].

سابعاً: وقوع الخطإ من شخص لا يلزم وقوعه ممن هو على مذهبه أو طائفته أو جماعته.

قد يسير المسلم على مذهب أو طريقة، أو مع جماعة، فإذا أخطأ هذا المسلم فينبغي أن نقول أخطأ فلان، ولا نقول المذهب الفلاني أخطأ أو أصحاب الطريقة أخطؤوا أو الجماعة الفلانية أخطأت، إلا إذا ثبت أن المذهب أو الجماعة أقرت ذلك المخطئ، فتخطئة الطائفة لخطإ أحد أفرادها ليس من العدل والإنصاف، وما أحسن ما ذكره الدكتور زيد عبد الكريم الزيد حيث قال: "ولأجل هذا لا يصلح أن ننتقد جماعة لخطإ وقع فيه بعض من ينتمي إليها، حتى ولو كان هذا الخطأ صدر من رئيسها، إذ ليست كل أقواله وأفعاله تنسب إلى الجماعة وتتحمل تبعتها، وإن من يُعيب جماعة من الجماعات الإسلامية لخطإ بعض أفرادها ، فمثله كمثل من يعيب جهلا وظلما للإسلام، ألسنا نقول للناس لا تنظروا إلى الأفراد، ولكن انظروا إلى الإسلام بصفته وحيا في القرآن والسنة، وعندها ستجدونه شرعاً فريدا".

---

(١) ميزان الاعتدال، ١/ ١١١.

ثامناً: نقد الآراء وبيان الأخطاء دون نقد الأشخاص ما أمكن ذلك.

بعض المنتقدين لا يفرق بين نقد الرأي ونقد صاحب الرأي فتجده يحمل على صاحب الرأي ويوجه له العبارات الجارحة والكلمات النابية، ونجد أن رسول اللهﷺ إذا حصل خطأ من بعض الصحابة لا يُسميهم بل يقول "ما بال رجال أو ما بال أقوام يقولون كذا وكذا" .

ما حصل بين الشاطبي وبين أحد علماء عصره من المبتدعة من نقاش حول مسألة الدعاء الجماعي بعد الصلوات، ومع أن المبتدع اشتد في رده على الشاطبي إلا أن الشاطبي ناقشه مناقشة طويلة ومع ذلك لم يذكر اسم هذا الشيخ نهائيا.

وقد نهى السلف عن التشهير بالرجال إلا إذا كان هناك مصلحة راجحة في ذكره، لأن الأصل هو الستر على المسلمين، وقد ذكر الدكتور بكر أبو زيد هذه المسألة فقال: "الأصل هو الستر والعمل على دفع دواعي الفرقة والوحشة وعدم الموافقة، فالرد ينصب على المقالة المُخالفة المذمومة لا على قائلها"[١].

تاسعاً: لازم القول ليس قولاً، وعدم الإلزام لما لا يلزم.

تجد بعض المسلمين ينسبون إلى شخص أو طائفة قولا أو رأياً لم يقل به على وجه التصريح، وإنما هو من باب الإلزام بالمفهوم، فهو حينما قال كذا فيلزم من قوله كذا.وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن

---

(١) المرجع السابق.

تيمية: "والصواب أن لازم مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا لم يلتزمه، فإنه إن أنكره ونفاه كانت إضافته إليه كذبا عليه"[1] وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "والتحقيق أن الذي يدل عليه الدليل، أن لازم المذهب الذي لم يصرح به صاحبه، ولم يشر إليه، ولم يلتزمه ليس مذهباً، لأن القائل غير معصوم، وعلم المخلوق مهما بلغ فإنه قاصر، فبأي برهان تلزم القائل ما لم يلتزمه وتقوله ما لم يقل"[2].

عاشراً: الامتناع عن المجادلة المُفضية إلى النزاع.

حذَّر الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الجدال، فقال: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[3] وقال: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾[4] وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[5] وبين الرسول ﷺ أن الجدل والمراء يؤديان إلى الضلال فقال: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"[6]،

---

(١) الفتاوى، ٢٠/ ٢١٧.

(٢) محمد العلي: إنصاف أهل السنة: ٩٧.

(٣) سورة غافر، الآية ٥

(٤) سورة الأنفال، الآية ٦

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٢١

(٦) رواه مالك في الموطأ، ٣/ ٤٠٢، رقم ٣٣، والترمذي، ٣٧٨/٥ رقم ٣٢٥٣، وابن ماجه، ١/ ١٩ رقم ٤٨.

ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾[١] ، وجاء وعده ﷺ ببيت في الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقاً[٢]. والجدال الممنوع: هو الجدال المُفضي إلى النزاع والخصومة الذي لا يُراد منه الوصول إلى الحق، أو يُقصد منه تعجيز الغير وإفحامه، أو الانتصار للنفس أو غير ذلك من المقاصد السيئة. ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال: "ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ". وقال أيضاً: "ما ناظرت أحدا، إلا قلت: اللهم أجرِ الحق على قلبه ولسانه. فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته". وقال أيضاً: "ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة"[٣].

الحادي عشر: حمل كلام المخالف على ظاهره وعدم التعرض للنوايا والبواطن

والأصل في هذه القاعدة حديث أبي سعيد الخدري في قصة الرجل الذي اعترض على قسمة رسول الله ﷺ وقوله: اتق الله فقال النبي ﷺ: ((**ويلك! أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**))؟ قال ثم ولّى الرجل، فقال خالد بن الوليد: "يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٥٨.

(٢) رواه أبو داود في سننه، ٢/ ٦٦٨ ، رقم ٤٨٠٠ ، والترمذي ، ٣٥٨/٤ رقم ١٩٩٣ وقال حديث حسن.

(٣) عبد الرحمن الرازي: أدب الشافعي، ٩١ – ٩٣ ، مكتبة التراث الإسلامي.

رسول الله ﷺ: **«إني لم أؤمر أن أنقّب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»**[1]. ويؤيده حديث أسامة بن زيد حينما قتل المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما علم الرسولﷺ أنكر ذلك عليه فقال أسامة: إنما قالها متعوذاً. فقال رسول اللهﷺ: **«هلا شققت عن قلبه»**[2].

فما في القلوب لا يعلمه إلا الله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وإنما نحن مأمورون بالأخذ بظاهر الإنسان وظاهر كلامه. ومما يدل على ذلك أيضاً ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "إن أناسا كانوا يؤاخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نقربه، ولم نصدقه، وإن قال: سريرته حسنة"[3].

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم المنافقين بأسمائهم وقد استأمن حذيفة ابن اليمان على أسمائهم، ومع ذلك عاملهم بالظاهر منهم وهو الإسلام.

وفي هذه الأيام ظهرت ظاهرة غريبة وهي أن نفرا ممن ينتسب إلى العلم الشرعي والدعوة إلى الله يتهمون بعض طلاب العلم والدعاة

---

(١) رواه البخاري ، ١٥٨١/٤ ، رقم ٤٠٩٤ ، ومسلم ، ٧٤١/٢ رقم ١٠٦٤.

(٢) رواه مسلم ، ٩٦/١ رفم ٩٦ .

(٣) البخاري: ٩٣٤/٢ رقم ٢٤٩٨ ، البيهقي في سننه الكبرى ، ٢٠١/٨ رقم ١٦٦٢٧

في نواياهم ومقاصدهم، فيقدحون في النيات بالرياء والمُباهاة، وقد نقل الشيخ عبد الله بن قعود عن بعضهم قوله: "فلان سلفي الظاهر مبتدع الباطن"[1] فانظر كيف وصل الحال بهؤلاء حينما لم يتقيدوا بهذه القاعدة، ولاشك أن هذا مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة الذين يأخذون الناس بظواهرهم ويكلون النوايا والبواطن إلى الله.

الخاتمة

نحن في زمن أحوج ما نكون فيه إلى نبذ الاختلاف واستئصال جذور التفرقة، إن أعداء الإسلام من وسائلهم أن يسلكوا سبيل التشكيك في المسائل وسخروا الجهلاء والبسطاء فأثاروا المسائل الاختلافية.

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون كثير من نصوص القرآن والسنة محتملة لأكثر من معنى، إذ أنزل القرآن بلسان عربي مبين واحتمال الألفاظ في اللغة أمر مسلم به. واقتضت حكمته تعالى أن يجعلهم متفاوتين في عقولهم ومداركهم ليكمل الكون.

وهذان الأصلان يؤديان إلى الاختلاف في الآراء والأحكام.

قد يقول القائل: وعلى هذا فلا يمكن تجميع الأمة؟! والجواب أبداً يُمكن حينما تقبل الرأي الآخر والتمس العذر لمن اتخذه دليلا

(١) مجلة المجتمع ١٠٤٨ ، في ١٣ ذي القعدة ، ١٤١٣ ه ص١

وأحسن الظن فيه إذ الاتفاق على أمر واحد لكل الأمم متعذر ولم يحصل في عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

والهوى الغالب الذي يتطور ويتضخم وتتعمق أغاديره في القلوب فيسيطر على الشخص ويتملك عليه حواسه وعقله حتى ينسى معها المعاني الجامعة والكليات العامة والصعيد المشترك والغايات والمقاصد والقواعد الأصلية للإسلام فيعدم صاحبه البصيرة والإبصار وينسى أبجديات الخُلق الإسلامي فتضطرب الموازين وتختل الرؤية وتختلط الآراء وتختلف الأولويات ويسهل القول بغير علم والفتوى بغير نور والعمل بغير دليل وينتشر التفسيق والتكفير والاتهام ويسقط ذلك المريض في هاوية التعصب الأعمى وينسى الانتماء وتظلم الدنيا فلا يكاد يرى إلا سواداً وظلمة كالحة وما هي إلا انعكاس لنفسيته المُظلمة التي انطفأ فيها نور العلم وخبت فيها جذوة التعقل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1] وتنقلب الآراء الاجتهادية والمدارس الفقهية إلى تحزب فكري وتعصب تؤول الآيات والأحاديث لما يوافقه[2].

إن أزمتنا أزمة فكر ومشكلتنا جدية الانتماء والأمة المسلمة عندما سلم لها عالم أفكارها وكانت المشروعية العليا للكتاب والسنة

(١) سورة النور، الآية ٤٠

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام د. العلواني: ١٣-١٤.

استطاعت أن تحمل رسالة وتقيم حضارة.

أما اليوم فلا يشكو المسلمون من قلة مادة أو ضنك عيش أو قصور في الموارد وحقيقة الداء تكمن في افتقادهم للمعاني الجامعة والقواسم المشتركة والغايات الموحدة[1].

لذا فإن سبيل النجاة في الأمور الآتية:

١) إن على المسلمين المخلصين الذين يعملون في حقل الدعوة ويعيشون واقع مأساة الأمة وحقيقتها أن يختاروا مجموعة من أذكى أبناء الأمة ويُهيئوا لها أفضل السبل لدراسة الشريعة على أيدي القلة من علماء الشريعة الذين يجمعون بين العلم والقدوة والتقوى والفكر السليم والإدراك القويم لغايات الإسلام ومقاصده.

٢) تعديل مسار الفكر لدى المسلمين حتى لا تنهار مؤسسات الأمة بسببها ويتدنى مستوى الوعي والمعرفة والتربية. ولتحقيق هذين الهدفين لابد أن يعي الشباب:

أ- أن الله يسر القرآن للذكر وهيأ سبل الاطلاع الواسع على السنة فلا بد من الاستعداد السابق والتزود بأدواته.

ب- لا بد من إدراك أن هذه الشريعة جاءت لتسعد الناس وتحقق مصالحهم وتنسجم مع قدراتهم العقلية، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ

(١) المرجع السابق: ١٥.

بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[2] .

ج- أهم نقطة إدراك الجميع أن أخوة الإسلام ووحدة صفوف المسلمين ونبذ كل ما يُسيء إليها من أهم الفرائض وأفضل القربات وتحتل المراتب الأولى للواجبات لأنها شقيقة التوحيد وقرينته كما أن هناك مراتب للمنهيات يقع النيل من الأخوة في مقدمتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "المسلمون متفقون على جواز صلاة بعضهم خلف بعض، كما أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأربعة، مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يُصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرؤون بالبسملة لا سراً ولا جهراً ، وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم، وكان أحمد يرى الوضوء من الحجامة والرعاف فقيل له: فإن كان إمامي قد خرج منه الدم ولم يتوضأ أصلي خلفه؟ فقال: كيف لا تصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك؟ "ولا يجولن بفكر أحد أن حرصنا على الأخوة الإسلامية ووحدة صف المسلمين يعني التساهل في قضايا العقيدة الإسلامية التي لا تحتمل التأويل ضمن حدود القواعد الثابتة في العقيدة، أو أن نضع أيدينا بأيدي

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥

(٢) سورة النساء، الآية ٢٨

الذين ليس لهم نصيب من الإسلام إلا الأسماء بحجة الحرص على الأخوة، فالقضايا الخلافية التي لا يجوز أن تفرقنا هي تلك التي اعترف بها كرام العلماء من أئمة السلف، وتعاملوا معها من خلال آداب فاضلة، وكان لديهم من الأدلة ما يُجيز أكثر من وجه.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.